

التشخيص بداية الحكاية... لا نهايتها

دالية عطية الطويرقي

باحثة ومختصة في مجال التربية الخاصة وخدمة الأشخاص ذوي الإعاقة

في التربية الخاصة، لا يكفي أن نقرأ التقارير، أو نحفظ التشخيصات، أو نطبق الخطط كما كُتبت.

هناك ما هو أكثر أهمية...

أن نرى الطفل.

أن نراه كما هو، لا كما تصفه ورقة، ولا كما اختصره تشخيص، ولا كما اعتاد الآخرون أن يروه.

هذه القناعة لم تكن بالنسبة إليّ مجرد مبدأ مهني أو من به، بل كانت درسًا حيًا حمل اسمًا لن أنساه:

محمد.

كان محمد طفلًا من ذوي اضطراب طيف التوحد، إلا أنه مرّ بمرحلة من حياته التعليمية وهو يُعامل على أنه من ذوي الإعاقة السمعية.

تنقّل بين عدد من رياض الأطفال، وتلقّى جلسات تخاطب، وأصبح التعامل معه قائمًا على افتراضٍ لم أجد أنه يتسق بصورة كافية مع ما كنت ألاحظه لدى الطفل الذي أمامي.

ثم التقيته.

كنت إحدى معلماته.

وفي اللقاءات الأولى، لم أكن أبحث عن خطأ في تشخيص سابق، ولم أكن أحاول إثبات أن أحدًا قد أخطأ.

كنت فقط أراقب.

والملاحظة في التربية الخاصة ليست إجراءً هامشيًا؛ فالملاحظة المنظمة والدقيقة تُعد من الأدوات المهمة التي تساعد المختص على فهم أداء الطفل واحتياجاته، وتوجيه الأسئلة التي تستحق مزيدًا من التقييم.

كان محمد يتحدث.

بل كان يتحدث بالعربية الفصحى بطلاقة لافتة.

لم يكن يستخدم كلمات بسيطة فحسب، بل كان يمتلك حصيلة لغوية واسعة، ويكون جميلًا مترابطة، ويعبر عن أفكاره، ويحاور من أمامه، ويستخدم مفردات متقدمة بالنسبة إلى عمره في بعض المواقف.

وقتها، لم أستطع أن أتجاهل السؤال الذي طرق ذهني بقوة:

إذا كان محمد يُعامل على أنه من ذوي الإعاقة السمعية، فكيف نفهم هذا المستوى من اللغة المنطوقة في ضوء المعلومات المتاحة عنه؟

لم يكن السؤال حكمًا على تشخيص سابق، ولم يكن تشكيكًا في عمل أحد.

كان سؤالًا مهنيًا مشروعًا؛ لأن الممارسة في التربية الخاصة تتطلب أن نراجع مدى اتساق ما نلاحظه مع المعلومات الواردة في التقارير، وأن ننتبه إلى أي مؤشرات تستدعي مزيدًا من التقييم.

وأحيانًا، يكون السؤال المهني الصحيح أهم من الإجابة السريعة.

لذلك تحدثت مع والدته.

أخبرتني أنني أرى أن حالة محمد تستحق إعادة النظر والتقييم بصورة شاملة، وأن بعض ما ألاحظه لا يبدو متنسقًا مع الصورة التي بُني عليها التعامل معه آنذاك، خصوصًا في ظل قدرته اللغوية العالية وطلاقة حديثه.

وقلت لها، بصراحة ربما لم تكن سهلة في ذلك الوقت:

«أنا لا أستطيع أن أفترض أن محمد يحتاج إلى نوع محدد من التدخل لمجرد وجود اعتقاد سابق بحاجته إليه، بينما ما أراه أمامي يشير إلى ضرورة فهم احتياجاته بصورة أدق. ربما لا يحتاج إلى التدخل بالطريقة التي قُدمت له سابقًا... وربما يحتاج أولاً إلى أن نفهمه بصورة أشمل.»

لم أكن أعلم أن تلك الكلمات ستتجاوز حدود المكان الذي قيلت فيه.

لم أكن أعلم أن أمًا ستعود إلى بيتها وهي تحمل سؤالًا جديدًا.

ولم أكن أعلم أن ذلك السؤال قد يقود إلى رحلة مختلفة من التقييم، والبحث، وإعادة الفهم.

لكن هذا ما حدث.

بدأت الأم تبحث.

وأعيد النظر في حالة محمد.

وتغيّرت زاوية النظر إليه.

وهنا فهمت بصورة أعمق أن بعض الكلمات لا تُقال ثم تنتهي.

هناك كلمات تنتقل من أفواهنا إلى قلوب الآخرين، ثم تبدأ حياتها الحقيقية هناك.

كلمة قد تجعل أمًا تعيد التفكير.

وإعادة التفكير قد تقود إلى طلب تقييم جديد.

والتقييم الشامل قد يقود إلى فهم أدق للاحتياجات.

والفهم الأدق قد يقود إلى تدخل أكثر ملاءمة.

والتدخل الملائم...

قد يغير سنواتٍ من حياة طفل.

لهذا، عندما أتذكر محمدًا اليوم، لا أراه مجرد قصة عن تشخيص لم يكن متسقًا مع ما ظهر لاحقًا، بقدر ما أراه قصة عن قوة الملاحظة المهنية، وأهمية التكامل بين المعلومات والتقييم والملاحظة المباشرة.

قصة أمٍ استمعت.

وقصة معلمة لم تتجاوز ما رأيته، ولم تكتفِ بما قُدم لها من معلومات.

وقصة طفل كان بحاجة إلى أن يراه أحد بعيدًا عن المسعى الذي سبق حضوره.

لقد علّمني محمد أن التشخيص مهم، لكنه لا يختزل الإنسان.

وأن التقرير مهم، لكنه لا يمثل بالضرورة الصورة الكاملة عن قدرات الطفل واحتياجاته في كل سياق.

وأن التصنيف قد يساعدنا على فهم الاحتياج وتحديد الخدمات المناسبة، لكنه لا ينبغي أن يتحول إلى عدسة وحيدة نرى الطفل من خلالها.

فالطفل أكبر من تشخيصه.

وأوسع من ملفه.

وأعمق من خانة في نموذج.

وقد يمتلك إمكانات لا تعكسها التقارير بصورة كاملة؛ لأن مهمتنا المهنية لا تقتصر على رصد جوانب الصعوبة، بل تشمل أيضًا اكتشاف نقاط القوة والقدرات، وتوظيفها في بناء التدخلات التعليمية والتأهيلية المناسبة.

وفي التربية الخاصة، هناك فرق كبير بين أن نسأل:

«ما الصعوبة التي يواجهها الطفل؟»

وأن نسأل:

«من هو هذا الطفل؟ وما احتياجاته؟ وما نقاط قوته؟ وماذا يستطيع أن يفعل؟»

السؤال الأول يساعدنا على تحديد جوانب الاحتياج.

أما السؤال الثاني، فيقودنا إلى فهم الطفل بوصفه إنسانًا متكاملًا، لا مجرد مجموعة من الخصائص المرتبطة بتشخيصه.

محمد علّمني ألا أتعامل مع التشخيص باعتباره نهاية البحث، بل نقطة انطلاق لفهم أعمق.

وأن أترك دائمًا مساحة لاحتمال وجود زاوية لم نرها بعد، أو قدرة لم نكتشفها، أو احتياج لم نفهمه بصورة صحيحة.

علّمني أن المعلم في التربية الخاصة ليس منفذًا لخطة فحسب.

إنه عين تلاحظ.

وعقل يسأل.

وممارس مهني يربط بين الملاحظة والتقييم والخطة التعليمية.

وقلب لا يرضى أن يُختصر طفل في وصف.

وأحياناً...

يكون أثر المعلم الحقيقي خارج حدود الدرس.

في جملة يقولها لأم.

في ملاحظة يوثقها.

في سؤال يصبر على طرحه.

وفي موقف مهني يرفض أن يمر عليه مروراً عابراً.

وقد لا يعرف المعلم أبداً إلى أين ستصل كلمته.

لكن محمد جعلني أؤمن بأننا في هذه المهنة قد لا نغيّر حياة الطفل بما نعلّمه له فقط...

بل بما نكتشفه فيه، وبالأسئلة المهنية التي نطرحها من أجله.

ومنذ ذلك الحين، كلما قابلت طفلاً يحمل تشخيصاً، أتذكر محمداً.

وأتذكر أن أمامي إنساناً قبل أن يكون حالة.

وأن من واجبي أن أراه قبل أن أختصره في تصنيف.

وأن أستمع إليه قبل أن أفسّر سلوكه.

وأن أبحث عن نقاط قوته قبل أن أعدّ نقاط ضعفه.

لأن الخطأ في فهم احتياجات الطفل أو اختزال قدراته في تشخيص واحد قد يؤثر في نوعية الخدمات التي يحصل عليها، وفي الفرص التعليمية المتاحة له.

لكن ملاحظة مهنية صادقة في الوقت المناسب...

قد تكون بداية لتغيير مساره.

وربما كان أعظم ما قدّمته لمحمد أنني لم أقدم له تدخلاً إضافياً لمجرد وجود افتراض سابق بحاجته إليه.

بل قدّمت له سؤالاً.

والسؤال قاد إلى مراجعة.

والمراجعة قادت إلى فهم.

والفهم فتح طريقاً جديداً.

وهنا أدركت أن بعض الإنجازات في التربية الخاصة لا تُقاس بعدد المهارات التي علّمتها، ولا بعدد الجلسات التي نفّذناها، ولا بعدد الخطط التي أعدناها.

أحياناً يكون أعظم إنجاز لنا...

أن نمنع طفلاً من أن يعيش سنوات داخل تعريف لا يعكس حقيقته الكاملة.

محمد لم يكن بحاجة إلى أن نضعه في المكان الذي يناسب التشخيص فقط.

كان بحاجة إلى أن نبحث عن المكان الذي يناسب محمد؛ احتياجاته، وقدراته، ونقاط قوته، وأهدافه.

ولعل هذه هي الرسالة التي أحتفظ بها من تلك التجربة:

لا تجعل التشخيص يسبق الإنسان.

انظر إلى الطفل أولاً.

فقد تكون خلف كلمة، أو نظرة، أو ملاحظة صغيرة...

حكاية مستقبل كامل.

ومحمد؟

ما زال واحدًا من أولئك الأطفال الذين مرّوا في حياتي التعليمية، لكنهم لم يمرّوا من ذاكرتي.

لأنه علّمني أن المعلم قد يسهم في تغيير مستقبل طفل دون أن يدري.

وأن كلمة واحدة، حين تُقال في الوقت المناسب، قد تكون بداية لطريق جديد.

وفي نهاية الأمر، لم يكن محمد هو من احتاج إلى أن يتغير...

نحن من احتجنا إلى أن نراه بصورة مختلفة.

وهذه، بالنسبة إليّ، ليست قصة طفل أُسيء فهم احتياجاته فحسب.

إنها تذكير بأن خلف كل تشخيص طفلًا يستحق أن نراه كما هو، لا كما صُنّف.

وأن كلمة صادقة قد تفتح بابًا، وملاحظة مهنية قد تغيّر مسارًا، ومختصًا واحدًا يؤمن بضرورة فهم الطفل بصورة أعمق قد يكون سببًا في أن يرى الآخرون ذلك الطفل بصورة مختلفة.

ففي التربية الخاصة، قد لا يكون أعظم أثر نتركه في حياة الطفل ما نعلّمه له...

بل ما نكتشفه فيه، وما نحرص على ألا يغفله الآخرون.

ولعل محمدًا سيبقى دائمًا في ذاكرتي شاهدًا على حقيقة أوّمن بها:

أن الطفل لا يحتاج دائماً إلى من يغيّره...
بل إلى من يراه.

ومن يراه حقاً، سيمنحه فرصة لأن يرى نفسه كما يستحق أن يكون.

فقد لا نملك دائماً أن نغيّر حياة طفل كاملة، لكننا نملك أن نقول الكلمة التي قد تجعل حياته تسير في الطريق الصحيح.

إن هذه التجربة جعلتني أؤمن بأن الممارسة المهنية في التربية الخاصة لا تقوم على التشخيص وحده، وإنما على منظومة متكاملة من التقييم، والملاحظة، وجمع المعلومات من مصادر متعددة، وفهم السياق التعليمي والأسري، ومراجعة مدى ملاءمة الخدمات المقدمة لاحتياجات الطفل الفعلية.

فالتشخيص ليس حكماً نهائياً على الطفل، بل إطار يساعدنا على فهم خصائصه واحتياجاته، وتحديد نوع الدعم الذي قد يكون أكثر ملاءمة له. ولذلك فإن مسؤوليتنا المهنية تقتضي أن نبقي يقظين لأي مؤشرات قد تستدعي إعادة التقييم أو مراجعة الخطة التعليمية، دون أن نتجاوز حدود التخصص أو نصدر أحكاماً تشخيصية لا تستند إلى تقييم متخصص.

لقد تعلمت من محمد أن الطفل قد يحمل قدرات لا تظهر في التقارير بالوضوح نفسه الذي تظهر به في المواقف اليومية، وأن أفضل الممارسات هي التي تنظر إلى الطفل من زوايا متعددة، وتضع نقاط قوته واحتياجاته الفردية في قلب عملية التخطيط والتدخل.

فحين نقرأ تقريراً، علينا أن نسأل: ماذا يخبرنا هذا التقرير عن الطفل؟
وحين نلاحظ أداءه، علينا أن نسأل: ماذا يخبرنا سلوكه وقدراته عن احتياجاته؟
وحين نضع خطة، علينا أن نسأل: هل هذه الخطة تناسب الطفل فعلاً، أم أننا نطبقها لأن التشخيص يقول ذلك فقط؟

هذه الأسئلة لا تقلل من أهمية التشخيص، بل تعزز قيمته؛ لأن التشخيص الجيد لا يكون غاية في ذاته، وإنما وسيلة للوصول إلى فهم أدق، وخدمات أكثر ملاءمة، وفرص تعليمية أكثر إنصافاً.
وفي التربية الخاصة، لا نحتاج إلى أن نختار بين أن نرى التشخيص أو أن نرى الطفل.

نحن بحاجة إلى أن نرى الاثنين، ولكن دون أن نسمح للتشخيص بأن يحجب الإنسان.

فخلف كل تقرير طفل له شخصيته، وخبراته، واهتماماته، ونقاط قوته، واحتياجاته، وإمكاناته.

وخلف كل تصنيف قصة إنسانية تستحق أن تُفهم.

وخلف كل خطة تعليمية طفل يستحق أن تُبنى الخطة من أجله، لا أن يُجبر هو على التكيف مع خطة لم تُبنَ وفق احتياجاته.

ولذلك، كلما عدت بذاكرتي إلى تجربة محمد، أدركت أن القيمة الحقيقية لم تكن في الوصول إلى إجابة سريعة، وإنما في طرح السؤال الصحيح في الوقت المناسب.

هل نحن نرى الطفل كما هو؟
أم أننا نراه من خلال التشخيص فقط؟

قد يبدو السؤال بسيطاً، لكنه يحمل مسؤولية مهنية وأخلاقية كبيرة.

لأن الطفل لا يملك دائماً القدرة على أن يقول لنا:
«أنتم لا ترونني كما أنا.»

وهنا يأتي دورنا.

أن نلاحظ.

أن نسأل.

أن نستمع.

أن نراجع.

أن نتعاون مع الأسرة والفريق متعدد التخصصات.

وأن نبحت باستمرار عن أفضل تفسير لاحتياجات الطفل، وأفضل طريق لمساعدته على التعلم والنمو.

فالتربية الخاصة في جوهرها ليست فن التعامل مع التشخيصات...

بل فن رؤية الإنسان الذي يقف خلفها.

ومحمد سيبقى بالنسبة إليّ تذكيراً دائماً بأن أعظم ما يمكن أن يفعله المربي أحياناً ليس أن يضيف مهارة جديدة إلى قائمة مهارات الطفل، وإنما أن يفتح أمامه باباً لم يكن أحد قد انتبه إليه.

فقد يبدأ تغيير مسار طفل من ملاحظة...

وقد تبدأ الملاحظة من سؤال...

وقد يبدأ السؤال من معلم قرر أن يرى الطفل، لا أن يكتفي بقراءة ملفه..